الجمهورية
* العدد 10233 * الجمعة 4ربيع ثاني 1418هـ * الموافق 8 /8/ 1997م

في الذكرى الأربعين لوفاته :

مع الشاعر الملاّحي في ديوانه

ثورة الحرمان

علوي عبد الله طاهر

* المرحوم الشاعر عبدالله عبدالكريم الملاّحي، من مواليد حضرموت عام1931م من الشخصيات الاجتماعية والأدبية المعروفة عرفناه كشاعر من خلال بعض قصائده التي كان ينشرها في الصحف اليمنية الصادرة في عدن وحضرموت في الستينات والسبعينات ثم من خلال ديوانه الأول« ثورة الحرمان» الصادرة عام 1970 عن مؤسسة 14 أكتوبر للطباعة والنشر، ثم تعرفنا عليه شخصياً من خلال نشاطه الفاعل ومساهمته في الفعاليات الثقافية التي كان يحييها إتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، في عدن فكان دمث الأخلاق ودوداً وقوراً يحظى باحترام زملائه جمعياً.

واليوم ونحن نحيي ذكرى الأربعين لوفاته جدير بنا أن نقف عند بعض قصائد ديوانه « ثورة الحرمان»

ونحن عندما نتحدث عن شعره إنما نتحدث عن بعض آثاره التي تركها من بعده والتي ستظل تذكرنا به مابقينا وستذكره الأجيال القادمة من خلال آثاره الخالدة.

إن من يقرأ ديوان « ثورة الحرمان» للملاحي سيجد متعة وفائدة في آن معاً، متعة في الفن وفائدة عند الوقوف على بعض جوانب حياة المجتمع اليمني التي اتخذها الملاحي موضوعات في بعض قصائده ذلك أنه استطاع أن يرسم صوراً لبعض جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية في اليمن، في مرحلة تعتبر من أهم مراحل تطور المجتمع اليمني المعاصر، لما حصل فيها من متغيرات هامة وسريعة كان لها عظيم الأثر على المراحل اللاحقة.

إن أول قصيدة تستوقفنا في ديوانه هي قصيدة« خفقان قلب» وهي من أقدم محاولاته الشعرية يرجع تاريخها إلى عام 1948 م أي أيام سن الشباب والمراهقة وعمره يومذاك 17 سنة تقريباً وفيها نجده يبكي قلبه ويندبه لأنه من شدة خفقانه من جراء لوعة الحب يكاد يترك الجسد ويتحرر من قيود الأسر ذلك أن قوة توثبه للخروج من دائرة الأسر جعلت الصدر غير قادر على احتماله لأنه يريد أن ينطلق ليحلق في عالمه السحري تذوبه لوعات الحب التي جعلت قلبه يتقلب بحيث يعجز المرء عن اكتشاف أسراره ومراميه واتجاهاته في الحب. لنقرأ قوله:

قلب أبكيه وأندبه إذ أوهى الصدر توثبه

قلب أبداً يحيا دنفاً لوعات الحب تذوبه

ويهيم بسحر الطرف ولم يعرف أحد ماذوبه

كم طاف بأزهار نفحت بشذاها العطري تجذبه

وتنقل فيها منتشياً وأليف الفصن يطربه»ص.٢

إن الصورة هنا جميلة كما نرى تدل على قدرة الشاعر على التخيل رغم أن في تلك الفترة كان في بداية محاولاته الشعرية.

وإذا وقفنا عند قصيدة أخرى نظمها الشاعر بعد عشرين عاماً من نظمه لتلك القصيدة، فإننا نعثر في صدارة الديوان على قصيدة بعنوان« إلى السمراء»صـ1 قال فيها:

هذه صفحة لأجلك ياسمراء وشيتها بأسنى عبارة

ورجائي بأن تظل مدى الدهر قصيدة الخلود ملء الصدارة

كلمات فيها حرارة أنفاسي وأنفاس روحك المعطارة

وقوافٍ منغمات ستبقى في فم الدهر عذبة محتارة

هي من وحي حبنا الطاهر العذري تغني العواطف الفوارة

لقد عمد الشاعر بوضع هذه القصيدة في صدارة الديوان لما لها من دلالات، وما فيها من مشاعر جياشة تجاه حبيبته السمراء « اليمن» التي خصها بقصيدة الموشاة بأحلى أو أسنى عبارة.
حسب تعبيره - وفي الوقت نفسه ضمنها آماله في أن يبقى شعره خالداً خلود الدهر، يتخلد به ذاكره، وأمنياته في أن يحظى باهتمام الآخرين ، ويكون في موضع الصدارة بالنسبة لهم فلايهملون قراءته وينزلون صاحبه المنزلة اللائقة به، وكأنه كان يدرك أن الناس سيتجاهلونه أو يهملونه في أواخر أيامه، ولكن عزاءه أن حبه لليمن، وانغماسه في حبها روحاً وجسداً يغنيه عن حب سواها، لذلك هو يهديها كلماته الممتزجة بحرارة أنفاسه على أمل أن تبقى تلك الكلمات ذات القوافي الجميلة.
الممزوجة بنغمات الحب الطاهر ليبقى هذا الحب خالداً مدى الدهر باعتباره حباً أزلياً يتجدد بتجدد السنين والأيام لأن عواطفه تجاهها متجددة هي الأخرى تزخر بكل أنواع الحب الصادق فيهيم بها حباً مع كل نسمة من نسمات الربيع، التي تجعل عواطفه تتدفق من شدة اعجابه بمحبوبته فهو لذلك يغني لها غناء متواصلاً لاينقطع وسيظل يشدو بحبها شدو البلابل ؟؟؟ الدهر فهو يشعرأن في حبها يكون للحياة مذاق خاص ومتعة لانظير لها فبهذا الحب يستعيد أمله في الحياة وفيه يكون تحرره من ربقة اليأس والجرمان.

إيه يادفعة الربيع ابتسام منك يهدي بلابلي المحتارة

ولقاء تحت النجوم يريني أنغم الحب ثرة فوارة

فيه اشراقة الحياة وفيض الحب يجلو لأهله أسراره

وانعتاق من ربقة اليأس والحرمان والهم والأسى والمرارة.

وإذا تأملنا في الخصائص الفنية لهذه القصيدة نجد أنها تتمثل في الأمور التالية:
تحرر فيها الشاعر من قيود القصيدة التقليدية فلم يلتزم بنظام الصدر والعجز في البيت الشعري بل لجأ إلى البيت المدور بفعل تأثير مدرسة المهجر.
امتزجت تجربته الشعرية بعناصر الخيال والذات والموضوع والعاطفة والفكر والموسيقى والصورة واللغة وامتزاجاً جعل تقنيه البناء الشعري متماسكاً لاتنفصل عناصره عن بعضها.
حرص على أن يجعل العاطفة والخيال متجانسة مع الموسيقى الشعرية كما جعل الألفاظ موحية بالمعاني فاستطاع بذلك أن يرسم صوراً شعرية لاتكلف فيها.
الوحدة العضوية في القصيدة ضعيفة إذ يمكن للمرء أن يحذف بعض أبيات القصيدة دون أن يختل المعنى كما يمكنه أن يغير في ترتيب الأبيات مع الحفاظ على المعنى.
عاطفة الشاعر تجاه الوطن واضحة مما يعطي للقصيدة بعداً وطنياً ويتجلى ذلك بوضوح من خلال محاولة الشاعر في التعبير عن عاطفته تجاه السمراء التي هام بها حباً وعشقها عشقاً صوفياً طاهراً أزلياً.
إن حب الشاعر للوطن جعله يتفاعل مع مجريات الأحداث فيه فاندفع للتعبير بصدق عن عواطفه تجاهها لانجد فيه أي تكلف بل نجد أن ألفاظه تنساب انسياباً طبيعياً وبالذات في قصائده التحريضية التي دعا فيها الشعب للتمرد على الواقع الاجتماعي السيء وترك الصمت عن الحديث عن المظالم ومعاناة الناس، ودعاه للانطلاق في التعبير عن نفسه وحاجاته والمطالبة بتغيير واقعه السيء والمتخلف.
فقال: ص23/

أيها الشعب تكلم وأبن رأيك تفهم

لست ياهذا أصماً أنت حي تتألم

فلماذا تتوارى بدموع تتضرم

إن بعض الصمت جبن وانهزم فتكلم

تطأطىء رأسك المحموم إرفعه تقدم

ويلاحظ أن الشاعر حاول في القصيدة أن يكتبها على طريقة السطر الشعري وليس البيت الشعري مجاراة شعراء التفعيلة مع أن القصيدة قد نظمت على أساس البيت الشعري في القصيدة العمودية التقليدية كما أن الشاعر قد حرص على الأخذ بالأسلوب الخطابي لغرض تحريض الشعب للانطلاق نحو آفاق المستقبل رغم الصعوبات التي تجابهها فهو يدعوه لتجاوز تلك الصعاب فقال:

أنطلق دس سلم الأشواك ضح وتعلم

قل فمن حقك أن تفعل إن الحق يقحم

إن يقولو عنك محجورٌ عليه لاتحكم

فلماذا لايعدونك للرشد المحتم

أيها المعدم أربابك تثرى وتنعم

أيها المبعد أربابك تدنى وتكرم

ياطريد الفقر والحرمان ياكوناً محطم

اجار اليوم بشكواك أبن لاتتكتم

وفي محاولة من الشاعر الملاحي لتصوير معاناة أفراد الشعب إبان حكم الامامة والاحتلال في شمال اليمن وجنوبه عمد إلى رسم صورة من واقع الحياة في الريف اليمني متخذاً من الفلاحة أنموذجاً للمرأة الريفية فقد نجح في رسم صورة واقعية للمرأة العاملة في الحقل جنباً إلى جنب مع الرجل فهما معاً يعملان في الأرض بكل همة لكي يتخلصا من عناء الفاقة والجوع والعري لذلك يظلان منهمكين في العمل من غير كلل تحت أشعة الشمس المحرقة في الوقت الذي يذهب المحصول كله لصالح صاحب الأرض فلا ينالان من محصول الأرض شيئاً لأن صاحب الأرض قد استأثر به دونهم من غير تقدير لجهودهم.
لنقرأ هذه الأبيات التي أجاد فيها الشاعر في رسم صورة قاتمة للمرأة الريفية العاملة في الحقل فقال في قصيدة «فلاحة الوادي» صـ 16.

أقبلت فلاحة الوادي على الحقل النضير

وعلى ساعدها الأيسر طفل ودثار

وبيمناها عصا موسى مع البهم تسير

وعلى قمتها زاد كفاف للصغار

إن الشاعر يحاول في هذه الأبيات أن يرسم صورة للمرأة الريفية عند خروجها إلى ميدان العمل في الحقل فيصورها وهي تسوق الغنم إلى المرعى وبيدها العصا لتهش به على الغنم، وتحمل في الوقت نفسه طفلها معها لأنها لاتريد أن تتركه في البيت وحيداً لمابعاني من أمراض فقد أخذته معها وحملت معه زاداً من الطعام لايسمن ولايغني من جوع لقلته.
وإلى جوارها يسير أطفال آخرون من أبنائها.

ومشى في إثرها طفلٌ هزيل كالخيال

مطبق الجفنين قد غطاهما فرز الذباب

تحت أسمالٍ أدالتها قذارات الليال

عالقاً في ذيلها يخطو وئيداً في اضطراب

لقد أجاد الشاعر في رسم صورة واقعية لحياة المرأة الفلاحة في المجتمع الريفي، فابرزها في أسوأ حالاتها، بكل ماتعانيه من بؤس ، حرمان ، جوع ، ضعف ، هزال، مرض ، ذباب، ثياب مهلهلة، قذارة ، خوف من المجهول، معاناة ومابعدها معاناة، ومع ذلك نجدها مضطرة لمواصلة مسيرة الحياة رغم قساوتها فقد رسم للطفل صورة لاتقل بؤساً عن بؤس الكبار وكأنه يريد أن يقول لنا إن بؤس الكبار ينعكس أثره على الصغار، وسيكون بؤساً مشتركاً ومتوارثاً مالم يبادر المجتمع لتغيير واقعه، والسعي نحو مستقبل أفضل.
ثم يمضي الشاعر في تصوير حياة الفلاحة بكل معاناتها في تربية الأطفال والعناية بهم ورعي الأغنام، فهي مأن تصل إلى المرعى فاذا بها تنشغل بترقيد طفلها المريض وعندما ينام تمضي بسرعة بغنمها إلى المكان المخصص للرعي، ثم تتركها هناك في المرعى وتتجه على الفور نحو زوجها الفلاح، العامل في الأرض ، لتتولى مساعدته.
لنقرأ ماقاله الملاحي في رسم هذا المشهد.

ومضت فلاحة الوادي إلى حيث فتاها

تفلح الأرض إلى جانبه لاتتوانى

وتقيه لفحة الشمس إذا اشتد لظاها

عونها يلهبه عزماً ويذكيه افتتانا

فالشاعر يريد أن يؤكد لنا الدور الفاعل للمرأة اليمنية في الريف ووقوفها إلى جانب زوجها في أقسى الظروف وأصعبها فهي تشاركه في تعبة وكدحة بؤسة وتشد من أزره وتحفزه لمواصلة الشغل بوقوفها إلى جواره ولكي يبذل مزيداً من الجهد، حتى يحصلا على حاجتهما وأطفالهما من الطعام الذي يبقي على حياتهم.
كما لم ينس الشاعر في خضم تصويره لمعاناة الفلاحة من الاشارة إلى مابينها وزوجها من حب ولعل هذا الحب هو الدافع الأقوى لكفاحهما المشترك رغم معاناتهما.

يلتقي الحب على العيش وتوحيد الكفاح

الكفاح القدسي الحر من أجل الحياة

يدفعان العري والفاقة بالجهد المتاح

ويفيضان على مولاهما مالاً وجاه

يفنيان العمر في الكدح على هذا التراب

ويفيض الخير في أيديهما وقت الحصاد

فيجود أن به جود عفيف ماأصاب

لجباة عفنوا الأرض عتواً وفساد.

لقد وفق الشاعر ايما توفيق في ابراز الصراع الإجتماعي كما هو في واقع الحياة الريفية حيث أظهر بوضوح مقدار معاناة الفلاح الأجير في ظل أوضاع اجتماعية غير متكافئة في علاقاتها الانسانية فالفلاح المسكين رغم مايبذله من جهد في العناية بالأرض وتربية الماشية، بالتعاون مع أفراد أسرته إلا أن مايحصل عليه من أجر مقابل ذلك لايساوي شيئاً مقابل ذلك الجهد بينما كان الآخرى به أن يحصل على نصيب وافر من محصول الأرض غير أن واقع الحال كان عكس ذلك وليت الأمر يقتصر على مايأخذه مالك الأرض من المحصول بل تيعدى ذلك إلى أشخاص آخرين من جباة الضرائب الذين يجبرون الفلاح على أن يتنازل لهم عن بعض ما حصلوا عليه من دون أي حق فاذا لم يفعل ذلك تعرض لإيذائهم.

حقاً لقد أجاد الملاحي في هذه القصيدة تصوير العلاقة غير المتكافئة في المجتمع الريفي وما يرتبط بتلك العلاقة من إرهاق وجهد ضائع مقترن بالمذلة والهوان والعوز والجوع والبؤس والتخلف كما أجاد في تصوير بؤس الفلاح اليمني والدور الاجتماعي الفاعل للمرأة الريفية، فقد أبرزها كزوجة وفية وأم حنون، وفلاحة نشيطة، وراعية يقظة، وحاطبة مجدة، وسيدة بيت مثالية ، وغيرها من الصفات.

ولم يكتف الملاحي في تصوير معاناة الناس في المجتمع اليمني في ظل حكم الإمامة والاحتلال وانما عمل في الوقت نفسه على تحريضهم للخلاص من ذلك الواقع الأليم، في مثل قوله من قصيدة« الاصرار الحاسم»صـ ,33

ياأخى لاتقل طال بنا الليل وأضنانا المسير

ياأخي لاتقل إنا ظللنا الدرب والليل خطير

لاترع لاتلق بالاً للأفاعي والصلال

أمض ياصاح بنا عبر الأفاعي والصخور

دس عليها حطم الصخر وجز درب الشرور

يا أخي سر وسط هذا الليل مرفوع الجبين

إنما يشرق من طلعتها الفجر على الكون الحزين

يا أخي غدنا المنشود تجميع الجهود

لبناء الوطن القابع في ذيل الوجود

فتقدم ،سربنا حتى يطل الفجر خفاق البنود

وكان للشعب ماأراد، فقد فجر ثورته ودحر المحتلين
وحقق وحدته المباركة، ثم دافع عنها بشراسة في مواجهة قوى الردة والانفصال فكتب الله له النصر في السابع من يوليو 1994م .

وصدق الملاحي رحمة الله حين قال في نشيد ثورة الحرمان:

ثورة الحرمان قادتها — الجماهير الفقيرة

تضحيات وبطولات — ووثبات جسوره

أكدت تصميم شعب — ثار يختط مصيره

في الربوع اليمنية.

◆◆◆

القيت في الأمسية والندوة الأدبية المكرسة للذكرى الاربعينية لوفاة الشاعر اليمني عبدالله عبدالكريم الملاحي والمنعقدة في المركز الثقافي اليمني بيت(رامبو) سابقاً مساء الأحد ٢/٨/٩٧م